البـــاب الأول

نشأة اللغة الإنسانية

نشأة اللغة الإنسانية

تمهيد:

نقرر بداية أن البحث في موضوع نشأة اللغة الإنسانية، يعد من الدراسات التي تفتقر إلى الدقة والحقائق الصحيحة والدقيقة، وقد ذكر ذلك ماريو باي M,Pei بقوله"فيما يخص بنشأة اللغة وطبيعتها، لدينا مصادر تعتمد الأساطير والحديث المنقول والمناقشات الفلسفية، ولكن تنقصنا الحقائق العلمية في هذا الصدد (١) كما أن الجمعية اللغوية في باريس، التي انعقدت سنة ١٨٨٦م، قد قررت عدم مناقشة هذا الموضوع نهائيًا، أو قبول أي بحث فيه، ليعرض في جلساتها كما أن كثيرًا من علماء اللغة المشهورين، وذوي الصيت الذائع، في مجال الدراسات اللغوية لم يولوا هذا الموضوع قدرًا من الاهتمام ينبئ عن أهميته أو جدواه في تلك الدراسات.

وبصفة عامة فإن الاختلافات في مسألة لغوية لم يصل إلي حد الاختلاف الذي وصل إليه في مسألة نشأة اللغة ، فقد صبغ العلماء عرض تلك المسألة والحديث فيها في كثير من الأحيان صبغة قومية ،أو مذهبية ، فلا غرابة أن تجد بعضهم يجعل من لغته القومية هي أصل اللغات ،حتى وإن كانت تلك اللغة من الفروع التي نشأت عن لغة أم لها !!

---

(١) لغات البشر ١٧

ولعل ما يؤكد عدم جدوي دراسة هذا الجانب من الدراسة اللغوية ماأكدة العلماء من أن أقدم النصوص اللغوية المدونة لا يزيد عمرها عن خمسة آلاف عام قبل الميلاد ، في حين تؤكد الدراسات الانثروبولوجية أن عمر الإنسان علي سطح الأرض لا يقل عن المليون سنة إن لم يكن إكثر من ذلك بكثير، ولعل هذا الفارق الزمني الهائل يؤكد عدم جدوي تلك الدراسات ، وافتقارها الشديد إلي المصداقية والصحة الواقعية.

لقد حاول العديد من العلماء أن يربطوا بين لغة الطفل، ونشأة اللغة الأنسانية الأولي، وقد ثبت أيضا أنه ليس هناك ثمة صلة بين هذه المسألة وتلك، إذ من الثابت أن الأطفال في جميع بلاد العالم يبدأون النطق بمقاطع صغيرة من نوع (ص ح) أي: صوت صامت + حركة قصيرة مثل قولهم: بَ، مَ، تَ، هـَ فهي مجرد أصوات شفوية أو من مخارج أمامية، وكذا: الهاء من المخارج الخلفية، المرتبطة بعملية التنفس (الزفير) ما يلبث الطفل بعد ذلك محاولاً إطالة الفتحة، فتنشأ بعد ذلك كلمات مفردة لها صلة وثيقة بواقع اجتماعي مثل كلمة (بابا، ماما، تاتا، هاتا، ... إلخ) كما حاول بعض العلماء أن يعقد صلة بين صيحات بعض الحيوانات كالقردة العليا وبين نشأة اللغة الإنسانية الأولى وأن لها صلة مباشرة بالصياح الانفعالي، والإشارات والإيماءات التي تستخدمها تلك القردة العليا، ولا شك أن هذه المقارنة

تفتقر إلى مقومات أساسية، فشتان بين قدرة الإنسان على اللغة وعدم قدرة الحيوانات عليها!.

لقد قدمت النظرية التوليدية التحويلية ، ورائدها اللغوي الأمريكي الشهير نعوم تشومسكي N.Shomsky قدمت هذه النظرية أدلة مؤكدة على قدرة الإنسان على اللغة باعتبار أن قواعد اللغة – أية لغة ٠ كامنة في أذهان/ عقول أصحابها، وأن هذه المقدرة لقواعد اللغة، هي مقدرة فطرية ، وأن الحيوان لا يمتلك مثل هذه المقدرة ، بل إن الحيوان لا يمتلكها على الإطلاق.

وما يزال السؤال حول نشأة اللغة الإنسانية قائمًا، وهل كانت اللغة الإنسانية واحدة في أصلها أي منذ نشأة الإنسان، وخلق آدم عليه السلام ، أم أنها كانت لغات متعددة؟ وعلى الرغم من رغبة العلماء والباحثين الملحة في الحصول على إجابة شافية حول هذا التساؤل، إلا أن هذه الرغبة عسيرة المنال ، لكننا على الرغم من ذلك لا نعدم محاولات قديمة للوقوف على إجابة حول اللغة الأولى في عالم الإنسان، ولعل أقدم محاولة في ذلك ترجع إلى الفراعنة المصريين، **فقد حاول الفرعون المصري بسماتيك الذي قام بعزل طفلين** بعد ولادتيهما مباشرة حتى يطمئن إلى عدم تأثرهم بالكبار من ذويهم، وقيل إن أول كلمة نطق بها الطفلان هي كلمة: بيكوس

(BeKOS) ومعناها "خبز"باللغة الفريجية (وهي دولة قديمة في أسيا الصغرى) وتأكد الفرعون المصري أن هذه اللغة هي أصل اللغات في العالم.

كما قام (**فردريك الثاني**) في مطلع القرن الثالث عشر الميلادي بتجربة مماثلة ، ويقال إن الطفلين ماتا قبل أن يصل الباحثون إلى نتائج حاسمة.

أما الملك (**جيمس الرابع**) ملك اسكتلندا (حوالي ١٥٠٠م) فإنه يزعم أن الأطفال الذين أجرى عليهم تجربته، قد استطاعوا أن يتحدثوا باللغة العبرية، بطريقة مفهومة.

هذه المحاولات جميعها، محاولات تنقصها ضوابط البحث العلمي الدقيق ولا يمكننا أن نطمئن إلى ما وصلت إليه من نتائج (١).

وممن غلبت على آرائهم وأفكارهم ونتائجهم النزعة القومية، عالم سويدي يرفض آراء غيره من العلماء السابقين، ويقرر أن آدم (عليه السلام) كان يتكلم اللغة السويدية، وأن الحية التي أغرت حواء بأن تأكل من الشجرة المحرمة كانت تتكلم اللغة الفرنسية!!.

ويتعصب باحث ألماني آخر، ويقرر أن آدم (عليه السلام) كانت لغته هي اللغة الألمانية، كما زعم بعضهم أيضًا أن اللغة التي كان يتحدث بها آدم (عليه السلام) هي اللغة الآرامية ، التي كان يُتحدث بها في بيت المقدس في

---

(١) انظر: لغات البشر ١٩، اللغة لفندريس ٣٤، دلالة الألفاظ ٩٠ وما بعدها والبلاغة العصرية ٧ وما بعدها.

عيد المسيح (عليه السلام) بل إن بعضهم قد ادّعى بأن اللغة الصينية هي أقدم اللغات العالمية.

كما تذكر المصادر العربية ، أن لغة آدم (عليه السلام) كانت اللغة العربية، وأنها ظلت هكذا إلى أن طال بها العهد، وتم تحريفها ، فصارت سريانية.

كما ورد في سفر التكوين، أن الأرض كانت لسانًا واحدًا، ولغة واحدة، وأنهم أي اليهود- قد تبددوا في بابل، وتبلبلت ألسنتهم وافترقت إلى اثنين وسبعين لسانًا، فلم يعد أحدهم يفهم الآخر.

وقد وردت نظريات وآراء حاول فيها العلماء تفسير النشأة الأولى للغة نذكرها على النحوالتالي:

1

الفصل الأول

نظريات نشأة اللغات الإنسانية

الفصل الأول
نظريات نشأة اللغات الإنسانية

تمهيد:

١- النظرية الأولى: نظرية الوحي والإلهام

ويطلق على تلك النظرية (نظرية التوقيف) ومضمون هذه النظرية أن نشأة اللغة الإنسانية يرجع إلى إلهام إلهي هبط على الإنسان، فعلمه النطق وأسماء الأشياء، ويعد الفيلسوف اليوناني "هيراكليت" من أتباع المدرسة اليونية ممن نادوا بهذه النظرية، من علماء العصور القديمة(١)، أما في العصور الوسطى فيصادفنا اللغوي أحمد بن فارس في كتابه "الصاحبي"الذي يقول: "اعلم أن لغة العرب توقيف ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿وعلم آدم الأسماء كلها﴾.

فكان ابن عباس يقول""علمه الأسماء كلها، وهي هذه الأسماء التي يتعارفها الناس، من دابة وسهل وجبل وجمل وحمار، وأشباه ذلك من الاسم وغيرها"(٢) ، أما في العصر الحديث فقد قال بهذا الرأي طائفة من العلماء منهم الأب "لامي" D,F, Lomi في كتابه "فن الكلام" L, Art de Parler والفيلسوف "دوبونالد" D.B, Ponald في كتابه "التشريع القديم" Lė Geislation Primitive . (٣)

---

(١) انظر: نشأة اللغة عند الإنسان والطفل للدكتور/ علي عبد الواحد وافي ص ٣٠

(٢) الصاحبي : ٦ ، وكذا المزهر ٨/١

(٣) فيلسوف فرنسي، له مؤلفات في السياسة والفلسفة، من أتباع الكنيسة الكاثولوكية ، انظر لغة الإنسان والطفل ٣٠-٣١

ويستدل أنصار هذه النظرية بأدلة نقلية مقتبسة من الكتب المقدسة، وذلك على النحو الذي اعتمد عليه ابن فارس، أما اليهود والنصاري فإنهم يستندون بما ورد في التوراة في قولها: "وجبل الرب الإله من الأرض كل الحيوانات البرية وكل طيور السماء فأحضرها إلى آدم ليرى ماذا يدعوها، وكل ما دعا به آدم ذات نفس حية، فهو اسمها فسمى آدم جميع البهائم وطيور السماء وحيوانات البرية"(١).

ويرى الدكتور/ وافي أن هذه الأدلة النقلية، فإن بعضها يحتمل التأويل وبعضها يكاد يكون دليلاً عليهم لا لهم(٢).

(١) سفر التكوين : ١٩/٢ – ٢٠

(٢) انظر: علم اللغة د/ علي عبد الواحد وافي ٩٨ ، ونشأة اللغة عند الإنسان والطفل ٣١

٢- النظرية الثانية: نظرية المواضعة والاصطلاح

وترى هذه النظرية أيضًا أن اللغة ابتدعت واستحدثت بالتواضع والاتفاق، وارتجال ألفاظها ارتجالاً، وقد قال بهذا الرأي الفيلسوف اليوناني "ديموكريت" Democrite في العصور القديمة (القرن الخامس ق .م) ، وقال بذلك أيضًا كثير من باحثي اللغة العربية، ومن أشهرهم اللغوي الشهير ابن جني وأستاذه أبو علي الفارسي، كما قال بذلك أيضًا "آدم سميث A, Smithe"ريد R.eid, "ودجلد ستيوارث" D, Stewart في العصر الحديث، ويشرح ابن جني هذه النظرية بقوله: "إن أصل اللغة لابد فيه من المواضعة، وذلك كأن يجتمع حكيمان أو ثلاثة فصاعدا، يحتاجون إلى الإبانة عن الأشياء ، فيضعون لكل منها سمة ولفظًا إذا ذكر عرف به ما سماه، ليمتاز عن غيره، وليغني بذكره عن إحضاره إلى مرآة العين، فيكون ذلك أقرب وأخف وأسهل من تكلف إحضاره لبلوغ الغرض من إبانة حاله... فكأنهم جاءوا إلى واحد من بني آدم فأومأوا إليه وقالوا: إنسان إنسان إنسان، فأي وقت سمع هذا اللفظ علم أن المراد به هذا الضرب من لمخلوق، وإن أرادوا سمة عينه أو يده أشاروا إلى ذلك، فقالوا: يد، عين، رأس، قدم، أو نحو ذلك، فمتى سمعت اللفظة منذ هذا عرف معنيها، وهلم جرا فيما سوى هذا من الأسماء والأفعال والحروف، ثم لك بعد ذلك

أن تنقل هذه المواضعة إلى غيرها، فتقول: الذي اسمه إنسان فليجعل مكانه "مرد"والذي اسمه رأس فيجعل مكانه "سر"وعلى هذا بقية الكلام، وكذلك لو بدأت اللغة الفارسية، فوقعت المواضعة عليها، لجاز أن تنقل ويولد منها لغات كثيرة مثل: الرومية والزنجية وغيرها"(١).

ويرى د/ وافي أن هذا المذهب ليس له أي سند من عقل أو نقل تاريخي، حيث يقول: "بل إن ما تقره ليتعارض مع النواميس العامة التي تسير عليها النظم الاجتماعية، فعهدنا بهذه النظم أنها لا ترتجل ارتجالاً ولا تخلق خلقًا، بل تتكون بالتدريج من تلقاء نفسها، هذا إلى أن التواضع على التسمية يتوقف في كثير من مظاهره على لغة صوتية يتفاهم بها المتواضعون"(٢) ، كما يرى أن هذه النظرية تعتمد على مجرد التخمين والخيال والفرض العقيم، إذ كيف نشأت هذه اللغة الصوتية ؟ وهكذا ترى أن ما يجعله أصحاب هذه النظرية منشأ اللغة يتوقف هو نفسه على وجودها من قبل(٣)...

---

(١) الخصائص ١/٤٤ ، ٤٥
(٢) علم اللغة ٩٨ ، ٩٩ ونشأة اللغة عند الإنسان والطفل ٣٢-٣٣
(٣) علم اللغة ٩٩ ونشأة اللغة عند الإنسان والطفل ٣٢-٣٣

٣- النظرية الثالثة : نظرية المحاكاة

وتقوم هذه النظرية على أساس أن اللغة في نشأتها إنما هي مجرد تقليد لأصوات الطبيعة والحيوان والطير وغيرها، وفي ذلك المعنى يقول ابن جني: "وذهب بعضهم إلى أن أصل اللغات كلها إنما هو من الأصوات المسموعات ، كدوي الريح، وحنين الرعد، وخرير الماء، وشحيج الحمار، ونعيق الغراب، وصهيل الفهرس، ونزيب الظبي، ونحو ذلك، ثم ولدت اللغات عن ذلك فيما بعد... ويؤيد ابن جني هذا الرأي – أيضًا – وذلك على حد قوله: "وهذا عندي وجه صالح، ومذهب متقبل"(١)، وقد دافع عن هذه النظرية العالم الألماني "هردر"وذلك في كتابه بحوث في نشأة اللغة الذي نشره سنة ١٧٧٢م.

ويرى أستاذنا الدكتور/ رمضان عبد التواب ٠ وجاهة هذه النظرية ويقدم الأدلة، ومن ذلك قوله: "ومما يؤكد هذه النظرية ما تجده في بعض الأحيان من اشتراك في بعض الأصوات التي تحاكي الطبيعة في عدة لغات ، فإن الكلمة التي تدل على الهمس في اللغة العربية هي كما نعرف "همس"وفي الإنجليزية Whisper وفي الألمانية : فلوسترن Flustern وفي المصرية صفصفو وفي الحبشية "فاصى"وفي التركية "سوسمك"فالعامل المشترك بين هذه اللغات جميعًا في تلك الكلمة، هو صوت الصفير السين أو

---

(١) الخصائص ٤٦/١ ، ٤٧

الصاد، وهو الصوت المميز لعملية الهمس في الطبيعة (١) ، بيد أنه يعلق على ذلك بقوله: "غير أنه اشتراك اللغات في الكلمات المحاكية للطبيعة، على هذا النحو أمر نادر ، ولو كانت هذه النظرية صحيحة للاحظنا اشتراكا بين اللغات في الكلمات التي تحاكي الطبيعة، مثل الشق والدق والقطع والصهيل والعواء والمواء وما إلى ذلك"(٢).

ثم يقدم دليلاً على ذلك ممثلاً في اختلاف محاكاة اللغات لصوت الديك ففي العربية هو: :"كوكوكو"أما الألمان فيجعلون صوته "كيكيركي"على الرغم من أنه يصيح عند العرب والألمان وغيرهم بصياح واحد"(٣).

ولا يمكن أن نغفل أن كثيرًا من الكلمات التي يستخدمها الإنسان وتعبر عن أحاسيسه ومشاعره، من تلك التي تسمى بألفاظ المعاني، ولا يمكن بحال أن تحد لنفسها موضعًا في قواميس اللغات وفقا لهذه النظرية.

---

(١) المدخل إلى علم اللغة ١١٢ ، ١١٣

(٢) المدخل إلى علم اللغة ١١٣

(٣) المدخل إلى علم اللغة ١١٣ وكذا : نشأة اللغة عند الإنسان والطفل ، حيث يقرر الدكتور / وافي أن هذه النظرية هي أدنى النظريات إلى الصحة، وأقر بها إلى المعقول، وأكثرها اتفاقا مع طبيعة الأمور وسنن النشوء والارتقاء الخاضعة لها الكائنات وجواهر الطبيعة والنظم الاجتماعية ٤٢ وما بعدها.

٤- النظرية الرابعة: نظرية التنفيس عن النفس

ترجع هذه النظرية نشأة اللغة الإنسانية إلى تلك المرحلة التي كان يعبر فيها الإنسان عن رغباته بأصوات ساذجة تلقائية تعبر عن سعادته وألمه ورضاه.. إلخ، وهذه الأصوات قد تطورات مع الزمن حتى صارت ألفاظًا أو لغة، ويوضح ڤندريس Vendryés النظرية بقوله: "عند هذا السلف البعيد الذي لم يكن مخه صالحًا للتكفير، بدأت اللغة بصفة انفعالية محضة، ولعلها كانت في الأصل مجرد غناء ينظم بوزنه حركة المشي، أو العمل اليدوي، أو صيحة كصيحة الحيوان تعبر عن الألم أو الفرح، وتكشف عن خوف ورغبة في الغذاء، وبعد ذلك لعل الصيحة اعتبرت بعد أن زودت بقيمة رمزية كأنها إشارة قابلة لأن يكررها آخرون ، ولعل الإنسان وقد وجد في متناول يده هذا المسلك المريح، قد استعمله للاتصال ببني جنسه، أو لإثارتهم إلى عمل ما أو لمنعهم منه... هذا الفرض تبدو عليه مخايل الصدق، وإن لم يكن مما يمكن الرهان عليه (١).

وتبدو هذه النظرية كما يرى ڤندريس Vendryés ، قريبة إلى الصدق، وبخاصة أنها تعزو اللغة الإنسانية إلى أمر ذاتي ، وإنها تعتد بالشعور الوجداني ، والحاجة إلى التعبير عما يجيش في النفس الإنسانية، ويرى أستاذنا الدكتور/ رمضان عبد التواب – أنه على الرغم من قوة مصداقية هذه

---

(١) اللغة لڤندريس ٣٨ ، ٣٩

النظرية "فإنها نظرية ناقصة وغامضة ، أما نقصائها فلأنها لا تبين منشأ الكلمات الكثيرة التي يمكن ردها إلى أصوات انفعالية، وأما غموضها فلأنها لا تشرح لنا السر في أن تلك الأصوات الانفعالية، تحولت إلى ألفاظ وأصوات مقطعية ، فلهذين الأمرين انصرف عنها اللغويون وسخر منها "ماكس موللر" M,Müller.

٥- النظرية الخامسة : نظرية الاستعداد القطري

تلك التي يطلق عليها نظرية "دنح دومح" Ding Dongوترجع هذه النظرية نشأة اللغة الإنسانية إلى غريزة خاصة زُوِّد بها في الأصل جميع أفراد النوع الإنساني وأن هذه الغريزة هي التي تدفع الإنسان إلى القدرة على التعبير عن كل ما هو مدرك محسوس، أو معنى من المعاني بكلمة خاصة كما هو الحال في قيام بقية الغرائز في الإنسان بوظائفها المتعددة، وقد تبنى هذه النظرية اللغوي الألماني "ماكس موللر" M,Müller ويشرح أستاذنا الدكتور / رمضان عبد التواب – تسمية موللر M,Müller للنظرية دنح دونحDing Dong فيقول: "إنما كان يريد أن يشبه هذه القوة النظرية بلولب الساعة الملتف في باطنها، ويشبه حوادث الزمن ببندول الساعة، الذي يتحرك بتحرك القوة الكامنة في الساعة التي ينطوي عليها اللولب، فالزمن ومقتضيات الأحوال ، هي التي تخرج هذه المقدرة من حيز القوة إلى حيز الفعل، وكأن النفس البشرية مخزن ممتلئ بالألفاظ ينفخ شيئًا فشيئًا بمنفاخ الزمن وبمقتضيات الحياة الواقعية (١) ، وقد اعتمد ذلك ماكس موللر M,Müllerفي قوله بهذه النظرية على الأدلة المستمدة من البحث في أصول الكلمات في اللغات الهندوأوربية ، حيث ثبت لديه أن مفردات هذه اللغات جميعها، ترجع إلى خمسمائة أصل مشترك، وأن هذه تمثل اللغة الأولى، التي

(١) المدخل إلى اللغة: ١١٦ وانظر : نشأة اللغة عند الإنسان والطفل ٣٤ وما بعدها.

انشعبت منها هذه الفصيلة، فهي لذلك تمثل اللغة الإنسانية في أقدم عهودها وتبين له من تحليل هذه الأصول أنها تدل على معان كلية، وأنه لا تشابه مطلقًا بين أصواتها وما تدل عليه من فعل أو حالة (١).

ويعلل أستاذنا الدكتور/ رمضان عبد التواب للأسباب التي دعت موللر M,Müller إلى اعتقاده في هذه النظرية بأن: "ملاحظة الأطفال في حياتهم اليومية الحرة التي تدل على أنهم يبتكرون أسماء لهم يسمعونها من قبل إرضاء لرغبتهم الفطرية في التكلم والتعبير عن أغراضهم ، فاستنبط من ملاحظته هذه أن الإنسان مزود بتلك القوة التي تنشأ عنها الألفاظ (٢).

وفي الحقيقة فإن هذه النظرية على وجاهتها، فإنها لا تحل المشكلة ولنا أن نسأل عن كيفية تزويد إنسان بهذه الملكة الفطرية المتمثلة فيتلك الذخيرة اللغوية؟ وكيف استطاع الإنسان أن يحيط بهذا الكم الهائل من اللغة، ومتى تم للإنسان ذلك ثم أن سؤالاً آخر لابد من أن تعرف إجابته، لماذا اختلفت اللغات وتعددت اللهجات على الرغم من أن القوى الفطرية لدى الإنسان لابد أن تكون متحدة في آثارها إلى حد بعيد (٣).

وبذلك فإن هذه النظرية لم تقدم حلاً لتلك المشكلة التي تبحث عن حل حول نشأة اللغة الإنسانية، بل إنها أضافت مشكلة أخرى، تتمثل في الغريزة

---

(١) انظر: علم اللغة ١٠٠ وكذا : نشأة اللغة عند الإنسان والطفل ٣٦
(٢) المدخل إلى علم اللغة ١١٧ .
(٣) علم اللغة ١٠٢

الكلامية، وهي من الأمور الغامضة المعقدة، فالنظرية السالفة لم تقدم حلاً للمشكلة، بل إنها ذهبت تؤكد قدرة الإنسان الفطرية على اللغة، وأن ما استندت إليه من الأصول الخمسمائة لا تمثل الحقيقة في شيء ، بل إنها بقايا لغة حديثة قطعت شوطًا كبيرًا في سبيل الرقي والكمال، ولم تصل إليها الأمم الإنسانية إلا بعد أن ارتفعت عقلياتها ونهض تفكيرها (١).

ولعل من أبرز عيوب تلك النظرية أنها تفترض ظهور الكلمة أو الكلمات الأولى لدى الإنسان كاملة غير خاضعة لسنة التطور (٢).

(١) علم اللغة ١٠٣ ، وكذا انظر : نشأة اللغة عند الإنسان والطفل ٣٩-٤٠
(٢) المدخل ١١٧، المدخل إلى علم اللغة ١١٧

٦- النظرية السادسة: نظرية الملاحظة

وترى هذه النظرية أن أقدم ما أمكن الوصول إليه من الأصوات اللغوية الأولى إنما تعبر عن أعمال وإشارات إنسانية ، ويرى "جيجر" Geiger العالم الألماني، أن تلك الإشارات والأعمال ، وما يصحبها من أحوال انفعالية قاسية، قد أثرت في الإنسان تأثيرًا آليًا بطبيعة المحاكاة العكسية، فتظهر على وجهه علامات التأثر نفسها، البادية على وجه زميله، وقد حمله هذا الانتباه إلى العمل وملاحظته أخاه وهو يعمل على أن تصدر منه إشارة تلقائية، أو صوت ساذج معبر عن هذه الملاحظة، على مر الأيام، وبتكرار التجارب المشابهة، تطورت الأصوات إلى كلمات، واستغنى عن الإشارات كلها، أو بعضها على الأقل (١).

وقد استطاع "جيجر" Geiger أن يرجع العديد من الكلمات الأوربية إلى أصول إغريقية سنسكريتية تدل على أعمال الإنسان، مثال ذلك الأصل الإغريقي الذي معناه "الكشط" أو "السلخ" اشتقت منه كلمات معاينها: الجلد والخشب والشجر، وهكذا نرى العلاقة واضحة بين هذه الفروع وأصلها، فإن الجلد: هو ما يسلخ ، والشجر: خشب كشط لحاؤه والشجر ما يكشط ليؤخذ منه الخشب، أما الكلمة الإنجليزية "ليل"Night فتنحدر إلى أصل سنسكريتي هو ang أو ungo بمعنى "الصبغ باللون الأسود"(٢).

---

(١) المدخل إلى علم اللغة ١١٧ ، ١١٨

(٢) المدخل إلى علم اللغة ١١٨

وبرغم أن هذه النظرية لها ما يدعمها في اللغة العربية أيضًا حيث إن العديد من الكلمات بها مشتقة من أصول تدل على أعمال إنسانية، مثال ذلك: منشار، مفتاح، مقراض، مقص، مخرز، محراث.... إلخ ، إلا أن هذه النظرية لم تقدم لنا حلاً عن كيفية وضع تلك الأصول العامة التي يقال إنها تتعلق بأعمال الإنسان أو إشاراته، وإنه من المتعذر أن ترجع جميع الكلمات التي تتكون منها اللغات كلها، إلى تلك الأصول العامة (١).

(١) المدخل إلى علم اللغة ١١٨

٧- النظرية السابعة: نظرية التطور اللغوي

وتقوم هذه النظرية على أساس أن اللغة الإنسانية، وقد سلكت مراحل نظرية متعددة متمشية مع مراحل نمو الإنسان العقلي، وقد تأثرت هذه النظرية بنظرية التطور عند "داروين"Darwin وقد ادعت هذه النظرية أن النمو اللغوي عند الطفل ما هو إلا طور من أطوار النمو اللغوي بعامة عند الإنسان.

وقد قسمت هذه النظرية مراحل التطور اللغوي إلى خمس مراحل متوالية وهي (١):

١- مرحلة الأصوات الساذجة الابتدائية، التي صدرت عن الإنسان في العصور الأولى، حيث لم تكن أعضاء النطق لدى الإنسان ناضجة أو مؤهلة ، ولم يكن يمتلك رغبات وميولا محددة، وتلك المرحلة تشبه النطق عند الطفل، أصوات غير واضحة ومبهمة لا يفهم منها تحديد لرغبته أو طلبًا لغرضه.

٢- مرحلة الأصوات المكيفة المنبئة عن الأغراض والرغبات ، المصحوبة بالإشارات المتنوعة، التي تساعد الأصوات مساعدة فطرية في الإبانة عن الأغراض، وقد ظهرت هذه المرحلة لدى الإنسان، بعدما اكتملت أعضاء النطق ونمى التطور والإحساس

(١) انظر: المدخل إلى علم اللغة ١١٩- ١٢١

الذاتي، وهذه الأصوات المكيفة هي المتنوعة لاختلافها في الشدة والرخاوة والجهر والهمس وغير ذلك، وتناظر هذه المرحلة في نمو الطفل اللغوي تلك المرحلة التي يصل إليها في أواخر السنة الأولى من عمره، عندما يصدر أصواتًا مكيفة مصحوبة بإشارات منبئة عن أغراضه(١).

هذه المرحلة عند الإنسان ليس فيها اختلافات بين أصواته وأصوات الحيوان من حيث الدلالة على الشعور بالخوف والحنين والنفور والرضا والقلق والاضطراب والشعور بالحاجة إلى المعونة، فالإنسان بهذه الأصوات يعبر عن شعوره ويستغيث بغيره من بني جنسه(٢).

٣-مرحلة المقاطع: وتمثل هذه المرحلة قدرة الإنسان على التعبير عن ألفاظ محددة الهدف بيد أنها أصوات ذات مقاطع مقيدة، مستنبطة من أصوات الأشياء والظواهر الطبيعية، وهذه المرحلة تناظر عند الطفل المرحلة المتمثلة في الشهور الأولى في السنة الثانية، حيث يتمكن خلالها الطفل من تكرار أصوات ذات مقاطع صغيرة، متأثرًا بما يسمعه حوله من الحيوانات، أما ما يراه من الكبار، ويستمر في تكرار هذه المقاطع حتى تستقر في نفسه، مثال ذلك قوله: "هَوْهَوْ"على الكلب، وكذلك قوله: "نونو"على القط، "تك تك"على الساعة... إلخ(٣).

---

(١) انظر: المدخل إلى علم اللغة ١١٩
(٢) انظر: المدخل إلى علم اللغة ١١٩-١٢٠
(٣)انظر: المدخل إلى علم اللغة ١٢٠

٤-مرحلة الكلمات المكونة من المقاطع:

وقد استعمل الإنسان هذه المرحلة التي تمثل الأصول العامة للغة، التي استعملها الإنسان الأول لقضاء حاجته، والتعبير عن أغراضه ورغباته ومن هذه الأصول اشتق الإنسان عن طريق المزج الصوتي كثيرًا من الفروع وقد اكتملت اللغة الفطرية لدى الإنسان عن طريق المزج الصوتي، واتسع نطاق عملياته الاجتماعي، وكثرت رغباته، واشتدت حاجته إلى التفاهم مع غيره، وتناظر هذه المرحلة عند الطفل تلك المرحلة التي يتمكن فيها الطفل من استعمال اللغة، والقدرة على التكلم، مع الكبار بذات قدرة الكبار ، حيث يتألف لديه معجم يشمل على الكلمات الشائعة في بيئته، واللازمة للتعبير عن أغراضه(١) .

٥-مرحلة الوضع والاصطلاح:

وتعد هذه المرحلة هي آخر مراحل التطور اللغوي لدى الإنسان ، وهذه المرحلة إن لم تكن فطرية إلا أنها تقوم على أساس فطري متمثلاً في حاجة الإنسان الملحة إلى الاحتكاك ببيئته والقبض على ناصيتها، وجعل اللغة تساير نموه الفكري والعقلي، واتساع نطاق تجاربه وتشعب دروب حياته، وفي هذه المرحلة وضعت المصطلحات العلمية، وابتكرت الأسماء الدالة على المسميات المستخدمة، ولا تزال اللغة تنمو باطراد، ولا يزال عدد مفرداتها

(١) انظر : المدخل إلى علم اللغة ١٢٠-١٢١

يزداد وكلما أوغل الإنسان في التحضر، وازداد نموه الفكري ازديادًا، يبدو أنه لن يقف عند حد، ويناظر هذه المرحلة مرحلة وصول الطفل إلى السن المدرسية ، ودراسته العديد من العلوم والفنون، وتعلمه بعض المصطلحات العلمية والفنية(١).

وتمتاز هذه النظرية بالأمور التالية (٢):

١- ترجع هذه النظرية نشأة اللغة إلى سنة التطور ، فاللغة شأنها شأن أي كائن حي ينشأ صغيرًا ساذجًا، ثم ينمو مع الأيام شيئًا فشيئًا، بحكم طبيعته والبيئة التي ينشأ فيها.

٢- تشرح هذه النظرية السر في نمو اللغة من حيث متنها وأساليبها ، وأن ذلك النمو يرجع إلى سلوك الإنسان نحو التقدم، في جميع مقوماته الخاصة وظروفه الاجتماعية، وإلى حاجة الإنسان العامة إلى تنمية لغته ، لكي تساير حياته وتسعفه حين يريد التعبير عن أفكاره ورغباته.

٣- تسمح هذه النظرية بوجود أكثر من عامل في نشأة اللغة وتطوريها، حيث يمكن أن يكون ذلك العمل هو تأثر الإنسان بالظواهر الطبيعية وأصوات الحيوان في مرحلة الأصوات الساذجة المكيفة، أو أنها نشأت متأثرة بالرغبات والانفعالات والعواطف بصورة تلقائية ، كما أن هذه النظرية تسمح بالوضع والاشتقاق والتوسع في نطاق اللغة.

---

(١) انظر : المدخل إلى علم اللغة١٢١

(٢) انظر : المدخل إلى علم اللغة ١٢١-١٢٢ وكذا: انظر : نشأة اللغة عند الإنسان والطفل ٤٥-٥٠

هذه النظريات هي جل الجهود التي بذلت من أجل التوصل إلى مسألة النشأة الأولى للغة الإنسانية، وهذه النظريات لم تستطع أن تقدم لنا تبريرات علمية أو تفسيرات دقيقة حول هذه النظرية، وعلى الرغم من أن النظرية الأخيرة تحاول أن تبدو في ثوب علمي فإنها وقعت في خطأ علمي صارخ يتمثل في اتخاذ معيار لغة الطفل وتطورها أساسًا في نمو اللغة الإنسانية وتطوريها ومعلوم أن لغة الأطفال متأثرة في تطورها بما يسمعه الطفل من حواليه من الكبار (١).

(١) انظر : المدخل إلى علم اللغة ١٢٢-١٢٣

2

الفصل الثاني

نظريات الربط بين لغة الحيوان واللغة عند الإنسان

يذكر مايكل كوربالیس M, C, Corballis أن اللغة كما يراها N,Chomsky تشومسكي أعقد من أن نتعلمها بملاحظة سياقاتها وذلك يعني أنه لا يوجد استدلالي خالص، يمكنه استنباط قواعد اللغة بمجرد فحص أو تحليل نماذج من الجمل، ولذلك فإن الأطفال يجب أن يكون لديهم شيء من المعرفة الفطرية باللغة، لتمكنهم من اكتسابها، أو ما يسميه: ستيفن بينكر "الغريزة اللغوية" ... وأنهم يولودون ولديهم معرفة بالنحو العام ثم يقومون بتكييف هذه المعرفة الفطرية أو وضعها في الشكل المتغير Paratmet erize حتى تتطابق واللغة أو اللغات المحددة، التي يكتسبونها(١).

والحق، فإن مايكل كوربالیس يرى بأن التعويل على القدرة الكامنة المتمثلة في المعرفة اللغوية، وأن العقل البشري هو وحده المسئول عن هذه المعرفة اللغوية، المتمثلة في الحالة State one عند تشومسكي الممثلة لنظريته: النحو الكلي، قد أدلى فيها الباحثون بدلوهم ، وبخاصة منذ منتصف الثمانينيات من القرن العشرين، وأنهم يرون بأن العقل مجرد جهاز ترابطي على درجة عالية من الرقي، وأن المخ يبدو أنه يعمل بواسطة عناصر هذه العناصر هي الخلايا العصبية، وهي تتصل بطريقة ترابطية ، وأن الخلايا العصبية هي التي تنقل المعلومات من أعضاء الحس إلى المخ، ومن المخ إلى مختلف الأجهزة خارج المخ، وأن الحركة ليست في اتجاه واحد، فثمة عمليات تغذية عكسية ، ودوائر كهربائية تنظم فيها استثارة

(١) في نشأة اللغة من إشارة اليد إلى نطق الفم، لمايكل كورياليس ، ترجمة محمود ماجد عمر ٢٣

الخلايا العصبية، في دوائر مقفلة راجعة([1]) وأنه هناك ثمة دلائل لا بأس بها على أن شعيرات الاتصال بين الخلايا العصبية، التي يعرف بها اسم: التشابكات العصبية Synops يمكن تغيُّر وظائفها عن طريق الخبرة([2]).

ولقد تأكد للباحثين الذين قاموا بعمل شبكات اصطناعية تحاكي خصائص العقل البشري عند تمكنها من التعامل مع القواعد التحويلية عند تشومسكي في أول الأمر، غير أن (جيف ألمان) قام بعمل (آلية نمو أمكن من خلالها تمكن الجهاز من التقاط بعض من النماذج التحويلية([3]) وثمة تساؤل هام، وهو هل اللغة الإنسانية مجرد كلام منطوق فقط؟ إن لغة الإشارة التي اخترعها أصحاب من : الصم، الذين لا يستطيعون ولا يمتلكون القدرة على السماع ومن ثم، فإنهم لا يمتلكون بالتالي القدرة على الكلام وهم يوصفون بأنهم حينئذ بُكْم أيضًا ، هؤلاء الذين حُرموا نعمة السمع، ومن ثم نعمة الكلام ، يمتلكون القدرة على لغة إشارية توليدية، أي أنها لغة إشارة ذات قدرة توليدية، على الرغم من امتلاك أصحابها للقدرات النطقية، لكنها تستخدم الإشارة باليدين وإيماءات الجسد والوجه وغيرها من أعضاء الجسم البشرى.

فاللغة إذن ليست مقصورة على تلك اللغة المنطوقة بخصائصها وسماتها ، وإنما اللغة تمتد إلى ما هو أعمق.. ويتساءل كورياليس هل اللغة الإنسانية إذن، هي الفكر نفسه؟ حيث يذكر – أحيانًا- أن التفكير هو عبارة عن كلام داخلي وهو كذلك أحيانًا، وليس الأمر على الدوام([4]).

---

(٢) انظر: نشأة اللغة عند الإنسان ٢٦

(١)انظر: نشأة اللغة عند الإنسان ٢٦

(٢)انظر: نشأة اللغة عند الإنسان ٢٦

(٣)انظر: نشأة اللغة عند الإنسان ٢٦

ويرى كورياليس أن اللغة ترتبط عميقًا بالتفكير، ما دمنا نستخدمها لنقل أفكارنا، وأن اللغة تعرف بأنها أداة عقلية mentalist وأنها تشترك في كثير من كونها لغة اتصال Commonuicative ومن جانب آخر، فينبغي- أيضًا – القول بأن اللغة الاتصالية، تختلف عن اللغة العقلية، تلك التي تستوجب الاستخدام الرمزي لتمثيل الأشياء التي نريد الحديث عنها، إنها خاصة عقلية([1]) .

لقد تعددت آراء العلماء وتباينت حول القول بأن اللغة خاصية إنسانية لكثير دون سواهم من المخلوقات الأخرى على مسطح الأرض، أي عالم الحيوانات حيث نشر : جيه أو : دي لامتري كتابًا بعنوان ، الآلة الإنسانية L.homme Machine ١٨٧٩م الذي يزعم فيه أن السلوك سواء أكان انعكاسيًا أو ذكيًا ، يمكن تفسيره بإثارة الأعصاب غير أن ديكارت قد أكد قوله: بأن اللغة موهبة، يبدو أنها تميز الإنسان عن سائر المخلوقات وأن ماكس موللر قد أعلن وجهة نظر ديكارت بقوله: اللغة هي حدود مملكتنا ، ولن تجرؤ بهيمة على اجتيازها([2]) في حين نجد دارون يقول بأن (اللغة نشأت من الصرخات غير المنبئة للحيوانات ويتهكم على نظرية موللر بأنها نظرية الـ : بو – وو bow-wew ، وجاء بعد ذلك تشومسكي ليؤكد وجهة نظر ديكارت في القول بأن اللغات في الحقيقة شيء لا يمتلكه سوى البشر وأنها تقوم على مبدأ يختلف كلية عن كل أشكال الاتصال الحيوانية([3]) . لكن على حد تعبير كورياليس على الرغم

---

(١)انظر: نشأة اللغة عند الإنسان ٣٧

(2)M.Müller : lolectures on the Science of languge vol, I , London , p403, 1880 , Longman, Green orig in Bermant .1861

(3) N,Chomky, Cartesian linguistics.. Ashapter on the history of rational thought , new York harper and Row 78, 1966

(٤)انظر: نشأة اللغة عند الإنسان ٣٧

من مجاهرته بأنه ديكارتي جديد، إلا أنه لم يجد من المناسب أن يتوجه إلى الميتافيزيقا ليشرح اللغة، زاعمًا أنها يمكن أن تفهم في إطار المبادئ الحاسوبية .. وأن الحاسوب ليس سوى جهاز ميكانيكي، وإن كان أكثر تعقيدًا مما كان يمكن أن يتصوره ديكارت([1]).

كما يذكر كورياليس بأن رؤية تشومسكي للغة، رؤية خاصة للحد بالقول بأنها تعد العجيبة الثامنة في العالم! وأما العالم البيولوجي : جون ماينارد سميث ويورس سانماري ، فإنهما يقولان بأن التحول من صرخات الرئيسات([2]) إلى اللغة الإنسانية ، بأنه التحول الأخير، في ثمانية تحولات مهمة في تطور التعقيد، وبأنه يتساوى في القيمة مع ظهور الشفرة الجينية([3]). غير أن اللغة التوليدية هي شيء فريد مقصور على الشر، يفرض مشكلات حادة.. حول كيفية تطور اللغة، لأن تفردها يعني أنه لا يمكن أن تخرج من دراسة الأنواع الأخرى بأي معلومات حول حياتها السابقة منذ حوالي خمسة أو ستة ملايين من السنين ، استقل أو انفك الفرع الذي أدى إلى الإنسان الحديث أو ما يطلق عليه فصيل الإنسانيات homomins من الفرع الذي أدى إلى الشمبازي والبونويو الحديثين اللذين يصنفان إلى جانب الغوريللا والأورانجوتان، باعتبارها القردة العليا وإذا لم يكن أي من السلوك شبه اللغوي في هذه القردة العليا، إذن فالأكثر احتمالاً هو أن اللغة تطورت في فصيل الإنسانيات فقط([4]).

---

(١)انظر: نشأة اللغة عند الإنسان ٣٧
(٢)فصيلة من أنواع القردة العليا.
(٣)انظر: نشأة اللغة عند الإنسان ٣٨
(٤)انظر: نشأة اللغة عند الإنسان ٣٨

ويتساءل كورياليس عما إذا كان السؤال حول أن اللغة – حقًا- مقصورة على الإنسان وأنها شيء فريد يتميز به الإنسان عن سائر المخلوقات؟ وأن الجدل حول هذا الأمر ما يزال مطروحًا وموضع جدل بين العلماء فقد جاء هاريس Harris أستاذ تشومسكي وهو عالم النفس السلوكي، الذي يمثل امتدادًا لمدرسة بلومفيلد Bloomfied السلوكية الذي تأثر بسكنر وبل وواطسون من علماء النفس السلوكي أيضًا، فقول أن هاريس كان قد ألف كتابه: السلوك اللفظي verbal behavior الذي جعل فيه اللغة الإنسانية إنما هي سلوك، وأن اللغة ليست إلا نوعا من السلوك المعقد الذي يمكن شرحه في نهاية الأمر طبقا للمبادئ نفسها التي يمكن استخدامها بشرح سلوك (حمامة تنقر مفتاحًا بحثًا عن طعام، أو طفل يتعلم ركوب الدراجة!!

أما تلميذه العالم اللغوي الشهير تشومسكي ، الذي ذكر في كتابه: التراكيب النحوية Systactic Structars أن اللغة لا يمكن شرحها من زاوية الترابطات (الشرطية) أو على أساس أي أسلوب محدود، يمكن من خلاله توقع أي كلمة عن سابقتها من الكلمات ... وأن اللغة هي انفراد بشري، ولا تشبه إطلاقًا الاتصالات بين الكائنات الأخرى(١) .

(١) انظر: نشأة اللغة عند الإنسان ٣٩ وانظر تفصيلات حول الملكة اللغوية الفطرية في العقل / الدماغ عند الإنسان ، وأنها ملكة إبداعية متميزة عن وسائل الاتصال المحدودة عند الحيوان في كتابه: اللغة ومشكلات المعرفة لنعوم تشومسكي ، ترجمة د/ حمزة المزيني ٦١ وما بعدها.

أنه على الرغم من تأكيدات تشومسكي، فإن للحيوان إمكانات إصدار أصوات متنوعة ومتنافرة، فهناك بعض الطيور التي يمكنها تقليد الإنسان تقليدًا عجيبًا في كلامه وعباراته، ولعل من طرائف ما يذكر في هذا الأمر، ما ورد في الأساطير عن ببغاء الملك هنري السابع، الذي غرق في نهر التيمس، فأخذ يصرخ قائلاً: أريد قاربًا – أريد قاربًا، عشرون جنيهًا لمن يعطيني قاربًا ، وعند أنقذه أحد البحارة، وذهب به إلى الملك طمعًا في مكافأته لانقاذه ببغاء الملك، فإذا بالببغاء وينصح الملك قائلاً له: أعط الوغد جروت(١) (الجروت ، عملة قديمة تساوي أربعة سنات كانت موجودة في القرن الرابع عشر إلى القرن السابع عشر) كما أن المدربة إجرين ببربرع قد تمكنت من تعليم ببغاء على استخدام أكثر من مائة كلمات للإشارة إلى الأشياء والأفعال التي تعرض عليه(٢) .

ومما يذكر بشأن قدرة الثديات باستثناء الثديات البحرية، وعلى الرغم من ذلك ، فإن تيرنس دياكون، يذكر أنه كان يسير أمام أحد معارض الأحياء المائية في مدينة بوسطن ، ففوجئ بصوت يهتف وقتها : هيه هيه، اخرج من هنا، وتبين أنه عجل البحر : هوفر، وكذا الحال بالنسبة للدلافين التي تقلد ما تراه بطريقة

(1) Tomas Man and the natural world , Hartmon Sworth, U. K Penguin p128, 1984.
(2) L.M. Pepperberg , Some Cognitive Capacties of an African Pamat 1990

ممتازة، وأنها تتعلم بسرعة بالغة الأصوات البشرية([1]). ومما يذكر أيضًا في هذا حوالي ٢٢ صوتًا مختلفًا([2]). عبرت بها عن الأنين والنباح والزمجرة والصراخ واللهاث وغيرها، ولكن هذه الأصوات لا يمكن أن توجد بصورة كلية، ولا تقبل التقطيع إلى مقاطع صوتية من جهة أو التمكن من تأليف ألفاظ أو كلمات من أصواتها كما هو الحال في اللغات الإنسانية، إن لقرود الشمبانزي متواليات من النداءات الطويلة تتألف من بضعة أنواع من النداء فيما بينها عندما لا ترى بعضها بعضًا، غير أن التحليلات التي أجراها العلماء قد أثبتت أنها نداءات لا تشتمل على خصائص المحادثة والحوار فيما بينها. وعلى العكس فإن النداءات الإنسانية التي تختلف نغماتها اختلافًا كبيرًا في حالات السؤال أو الإجابة على السؤال([3]).

لقد بذل العلماء والمدربون جهودًا مضنية لإثبات عدم صحة فرضية تشومسكي التي اعتمد فيها على ديكارت بأن اللغة موهبة بشرية، وأن اللغة أداة عقلية، وأن الحيوان لا عقل له ومن ثم فلا لغة له، ولكن هذه المحاولات قد باءت تجاربه بالفشل، لأن محاولات تعليم أفراد من الشمبانزي والقرود العليا وإن صادفت نجاحًا ضئيلاً ، لكنها سرعان ما أثبتت عدم جدوى تعلم القرد الحديث الفعلي ، لقد قامت كاني وكيث، بتربية أنثى شمبانزي تدعي: فيكي،

---

(1)P.L.Tyack : Dolphins Whis de asignanture Tune Science 28 , 2000

(2) H,R,Aich, Moos Heillen and E,Zimmerman: vocalization of adulet gelacds baboons 55- 100-32-1990

(٣)انظر: نشأة اللغة عند الإنسان ٤١

وعاملاها كواحد من أطفالهما في العلاقات الأساسية في التربية ، لكن: فيكي لم تستطع أن تنطق سوى ثلاث أو أربع كلمات نطقًا مضطربًا غير واضح وهذه الكلمات هي: ماما mama وبابا papa وفنجان cup وكذا: فوق up ، أما ألين وبياتريس جاردنر فلقد قاما بتدريب الشمبانزي على محاولة التواصل ، ولكن عن طريق الإشارات اليدوية القائمة على أساس لغة الإشارة الأمريكية ASL كما تمكنا من تعليم شمبانزي صغير آخر يسمى: واشو، على ما يزيد على مائة إشارة ، وثمة محاولات أخرى قام بها المدربون لتعليم القردة لغة الإشارة(١) وثمة محاولات أخرى استخدم فيها المدربون أشكالاً محكية ترمز إلى الأشياء والأفعال، حيث أكد الباحثون سهولة التعامل والتواصل مع الحيوانات عن طريق الرموز، التي يرون أنهاأسهل من الإشارات والإيماءات التي يصعب في الغالب فهمها وحل شفرتها، وقد قامت المدربة بإجراء تلك الاتصالات الرمزية مع بونوبو صغير يدعى: كانزي، وأنه تمكن من استخدام الرموز الموضوعة على لوحة صممت خصيصًا لتوليد الرسائل، التي ولدها آخرون، تلك الرسوم يطلق عليها: رسوم المفردات Lexigran وهي رموز مجردة لا تقدم دليلاً في حد ذاتها على ما قد تعنيه. ولذا فإن معانيها يجب تعلمها استظهارًا كما هو الحال عند تعليم أطفال البشر معاني الكلمات المنطوقة ، وقد تمكن كانزى من تعلم ما يزيد على ٢٥٦ مائتين وخمسة وستين رمزًا ومن المدهش والعجيب – حقًا- أن مدربي كانزي أكدوا قدرته على إنتاج العبارات، وأنه – أيضًا- يفهم اللغة الإنجليزية المنطوقة التي يسمعها!!

(1)R,A,Gardner and T, GardnerL Teching sign Language to achimpanzee, Science 165-664-72,1969.

وأنه قدم له تعليمات منطوقة ، تتضمن عشر كلمات أو أكثر وقاموا بتسجيل قدرته على تنفيذها ، ففي رده على سؤال مدربه، هل تضع بعض العنب في حوض السباحة؟ أطاع على الفور، وخرج من الماء، وبحث عن بعض العنب، ورماه في الماء!! وقيل – أيضًا- إن شمبانزي آخر، يدعى : أوستن، فقيل لكانزي هل تستطيع أن تأخذ بعض الحبوب إذا أعطيت أوستن، قناعك يلعب به فسرعان وما وجد قناعة وأعطاه إلى أوستن ثم أشار إلى ما معه من حبوب!! (١)

ويطلق بعض الباحثين اللغويين من أمثال، ديريك بيرتكون على هذه القدرات التي أظهرها كانزي بأنها تسمى: اللغة الأولية Proto language وأن هذه اللغة الأولية يمكن أن تكون في نوعين من الثديات البحرية مثل : الدلافين وأسود البحر، وكما يتبنى "مايكل كوربالیس" فإن اللغة الأولية، ربما قد تطورت بصورة مستقلة في ثلاث مجموعات نظرية على الأقل ، عند الطيور والثدييات البحرية والقردة العليا، لكنها ليست سوى لغة خاصة لتلك الحيوانات والطيور وغيرها، التي تحظى بالتدريب فحسب من مدربيها، وليس لأبناء جنسها على السواء، وتشبه هذه اللغة الأولية لغة البرقيات أو لغات الهجين، التي يستخدمها التجار الأوائل مع الأهالي المحليين، ثم يؤكد بأن اللغة الأولية ليست لغة بالمعنى الاصطلاحي للغة عند الإنسان حيث إنها لا تقدم شيئًا يشبه المرونة القاعدية المكتملة من جهة، ولا القدرة السردية من جهة أخرى (٢).

ويخلص كوربالیس بالقول بأن مهارة القردة، كانزي، لا تسوغ لنا بالقول بأنه يستطيع أن ينتج كلامًا مثل الذي يتدرب على نطقه، وأن صيحاته الحادة، لا

(١)انظر: نشأة اللغة عند الإنسان ٤٨-٤٩
(٢)انظر: نشأة اللغة عند الإنسان ٥٢-٥٣

تحمل شيئًا واضحًا بالكلمات المتطرفة، وأن هذه الصيحات لا تعدو أن تكون مجرد صيحات مصاحبة لانفعالاته ومحاولاته الاتصالية ، باستخدام الإشارات والرسوم. وأن القردة العليا لا تستطيع الاتصال من خلال الوسائل البصرية، إنها تستخدم الإشارات والإيماءات بما تشتمل عليه من تعبيرات الوجه، كما تستطيع الاتصال بالرموز الصناعية مع مدربيهم([1]) .

ويذكر كوهللر Kohler في هذا الصدد بأن بعض فصائل الحيوان يشترك مع الإنسان في القدرة على التعبير الإرادي البصري، أي في التعبير الإشاري ، وأن ذلك مما تختص به الحيوانات التي تعيش في جماعات مثل: النحل والنمل والقردة وقطع البقر والغنم والوعول وغيرها. فقد ثبت أن كثير أن تلك الفصائل وغيرها، تستخدم – أحيانًا- بعض الإشارات الجسمية للتعبير بها بشكل مقصود في بعض شئونها، ومن أمثلة ذلك ما يقوم به فحل الوعول (الأيل) من إشارات برأسه وقرونه، ليأمر القطيع بالوقوف عن السير، فيقف القطيع! كما يقوم بعمل إشارات أخرى للسير ، فيسير القطيع كما يذكر بأن بعض أنواع الكلاب الذكية، بأنها تقوم باستخدام بعض الإشارات بالرأس أو بغيرها للتعبير بطريق إرادي عن أمور خاصة مع أفراد فصائلها أو مع أصحابها من الإنسان، وذلك مثل: الطرق بالأظافر على الباب المغلق، لتعلم أصحابها إلى وجودها، فيفتح لها الباب أو أن تدفع إناء طعامها برأسها للتعبير عن حاجتها إلى الطعام ، أما القردة وبخاصة الفصائل العليا منها مثل (الغوريلا والشمبانزي والجيبون والأورانج والأوتانج) وكذلك الحال فصائل النحل والنمل ، فإنها تستخدم إشارات معينة للتعامل فيما بين أفرادها، وذكر كوهللر نماذج لصور تلك الإشارات عند

(١)انظر: نشأة اللغة عند الإنسان ٤٥-٤٦

الشمبانزي وما تقوم به من إشارات تطلب بها أفراد فصيلتها للمرافقة في الطريق، أو لإعطائه شيئًا إلى آخر([1]).

كما يذكر كل من: كيربي Kirloy وسبنسر Spense وبورميستر **Burmeister** وهوبير Huber وفرانكلين Franklin أن كثيرًا من طوائف النحل والنمل تستخدم إشارات مقصودة للتعبير بها عن شئونها فيما بين أفرادها.

وتتمثل هذه الإشارات في احتكاك بعض أعضائها أو أطرافها أو ذؤاباتها بجسم أحد أفرادها بطريقة خاصة، وقد أجرى لوبوك Lubeck عددًا من التجارب التي تأكد من خلالها صدق أو دقة ما ذكره العلماء السابقون([2]).

كما أوردت مجلة "المختار" عدد أكتوبر ١٩٤٧، ما نشره ألن ريفو A,Revo في مجلة : "فيشر مجازين" في مقال بعنوان "لغة الحيوان في الغاب" الذي يشتمل على حالات كثيرة حول لغة الحيوان([3]).

أما العالم واسمان Wasmann فإنه ينكر تمامًا وجود قدرة الحيوان على امتلاك أنظمة لغوية ذات دلالات مقصودة، ويرى أن جميع تلك الإشارات الحيوانية إنما هي إشارات فطرية ، وأنها لا تدل على شيء معين، بل إنها تقتصر على مجرد إثارة نشاطه، في ناحية يحددها العمل الذي سيتلو الإشارة، اتفق معه وأيده العالم دولاكروا Delacroiy في كتابه "اللغة والفكر" Le Langage et la pensee([4]).

---

(١)انظر: نشأة اللغة عند الإنسان والطفل ١٧-١٨

(٢)انظر: نشأة اللغة عند الإنسان والطفل ١٨-١٩ وكذا تطور المعاني ، لريبو ٦٦-٦٧ وكذا : انظر : النمل والنحل والزنانير ، للوبوك، وكذا: انظر : الذكاء الحيواني،لرومان.

(٣)انظر: نشأة اللغة عند الإنسان والطفل ١٩-٢٠

See, Kohler İntelligence des singes suprieursm 294 .

(٤)انظر: نشأة اللغة عند الإنسان والطفل ١٧-١٨

ويمكن أن تقسم أصوات الحيوانات على اختلاف أنواعها ([1]) إلى أصوات فطرية في أصلها يطلقها الحيوان للتعبير عن بعض شئونه وأحواله، وهذه الأصوات لا تمثل ما يقال مما ذكره العلماء باللغة الصوتية، إنها أصوات مبهمة عارية عن المقاطع والكلمات ٢-ثمة أصوات متنوعة تتلفظ بها بعض أنواع القردة، قد يظن أنها تعدُّ وسيلة من وسائل التعبير الإرادي، وبخاصة في فصائل مثل القردة العليا مثل: الجيبون، وهي كسابقتها ليست لغة صوتية، وأنها فحسب للتعبير عن الانفعالات أو التداعي الآلي أو حتى العدوى الصوتية، كما هو الحال في تقليد الحيوان بطريق فطري غير إرادي لأصواته أو لأصوات غيره. ٣- ثمة أصوات مركبة ذات مقاطع يلفظها هذه الحيوانات أو الطيور في حالات بعينها، أ- كأن يكون الطائر متلبسًا بانفعال جسمي أو نفسي، وتحدث تلك الأصوات بصورة آلية فطرية، ب- أن تكون تلك الأصوات تقليدًا أو محاكاة لصوت الإنسان سمعه الطائر، وهي – كذلك- أصوات تصدر بشكل آلي، لا تمثل قصدًا في التعبير أو المحاكاة . جـ- ثمة كلمات يمكن أن تسمعها الببغاء – مثلاً- في مناسبة بعينها، فتقوم بتقليدها، أي إن تكرارها مرتبط بالشرط الذي سمعها فيها، فهي تفسر في ضوء الارتباط الشرطي عند الحيوان هذه الأصوات – أيضًا- ليست لغة صوتية، لأنها ليست إرادية ، يقصد بها الطائر تحقيق شيء بطلبه، وإنما هي تصدر بصورة لا إرادية ([2]).

(١)انظر: نشأة اللغة عند الإنسان والطفل ٢٣-٢٨

(٢)انظر: نشأة اللغة عند الإنسان والطفل ٢٣-٢٨

يذكر مايكل كورباليس M,C,Corballis أنه لم يستشعر أحد قبل تشارلز دارون فكرة أن الكلام يمكن أن يكون اختراعًا وذلك في قوله: "لا يستخدم الإنسان الصيحات والإشارات والتعبيرات غير المنبئة فقط، ولكنه اخترع اللغة المنبئة- أيضًا- إذا كان لكلمة اختراع أن تنطبق في الحقيقة على عملية استغرق استكمالها خطوات عديدة، وتمت بنصف الوعي(١) ! كما يقول بأنه يميل إلى رأي بيكر، وأنه لا يرى بأن اللغة نفسها هي إلى حد بعيد جدًا أمر يتعلق بالتكييف البيولوجي، الذي يتحقق من خلال الانتخاب الطبيعي! وإنما هو يراها أي اللغة الإنسانية قد تنطوى على قررات أوسع من مجرد الاتصال ، مثل القدرة على استقبال المنظور العقلي للآخرين.. وأن فكرة استخدام الصوت الإنساني للإشارة إلى الأشياء والأفعال، ونقل التراكيب أنها تؤدي في النهاية إلى تحويل الإشارات اليدوية، إلى حد بعيد، وليس على النحو التام والكامل، إلى أن نقول بأن اللغة قد تكون اختراعًا قد انتقل من خلال العرف الاجتماعي من جيل إلى جيل، وأن تطويع الجهاز الصوتي وتكيفه مع آليات المخ/ العقل بالسماح للكلام الواضح عملية بيولوجية أساسًا، وأن هذه اللغة قد ظهرت بالتدريج وربما على مدى

(١)انظر: في نشأة اللغة ٢٢٤

مليوني سنة قد مضت أو ما يقرب منها وربما تكون اللغة قد اكتملت في الوقت الذي دخل فيه الهومو سابينز إلى المشهد من نحو ١٧٠ ألف سنة مضت .

ويمكننا القول بأن اختراع الكلام المستقل قد ارتبط بالعدول عن استخدام الإشارات اليدوية، بذات القدر في ارتباطه باختراع كلمات منطوقة جديدة، وأن مساحته أخذت في الاتساع السريع منذ ظهوره([1]) وليس معنى قولنا، بأن الكلام في حقيقته، يُعدُّ اختراعًا بشريًا، أنه ليس له مكون بيولوجي، فالجهاز الصوتي والسيطرة المخية / الدماغية على إخراج الأصوات وتفصيلها، كان يمكن أن يتغير بصورة كبيرة ليمكنا الإنسان من جعل الكلام أمرًا ممكنًا، كما أن هذه التغييرات لكل من الجهاز النطقي والسيطرة المخية/ الدماغية، كان لابد لهما من أن يكونا مدفوعين بالمزايا التكيفية لإضافة الأصوات إلى المخزون اللغوي . إن المتطلبات البيولوجية للنحو التعاقبي يمكنها أن تكون قد بدأت في الظهور منذ نحو مليوني سنة مضت، وربما يكون ذلك قد حدث في إطار نظرية العقل، مع التعويل على آلية تعزيز قدرة الذاكرة قصيرة المدى، لتمكن الإنسان من ثمة من استيعاب عدة مستويات من التعاقب ، والاحتفاظ بها في الذهن، ويمكن تفسير حجم المخ عند الإنسان عن سائر المخلوقات المماثلة له في الحجم في إطار ذلك التعاقب عنده على مدى المليوني سنة الماضية([2]).

---

(١)انظر: في نشأة اللغة ٢٢٥

(٢)انظر: نشأة اللغة ٢٢٩-٢٣٠

ويؤكد علماء نظرية التطور اللغوي بأن هذا النظام النحوي للغة (الكفاءة الكامنة) أو القدرة اللغوية الكامنة على حد تعبير تشومسكي ، بأن هذا النظام النحوي قد تطور بالدرجة الأولى، باعتباره نظامًا إشاريًا في البداية منذ مليوني سنة، وعندما بدأت أحجام المخ في الكبر وزيادة الحجم، عند الأسلاف الهومو الذين بدأوا يهاجرون مرر أفريقيا، وأنه من الصعب أن نحدد بالضبط بداية التحول من اللغة الأولية إلى اللغة النحوية، ولكن ذلك لم يكن حدثًا فجائيًا ، وأنه حدث ببطء شديد من الثقافتين : الألدوانية والأشولية، ومن ثمة حدث الانفجار التطوري العظيم منذ أربعين ألف سنة مضت، وهذا الانفجار يعكس اختراع الكلام المستقل([1]).

(١)انظر: نشأة اللغة ٢٣٠

3

الفصل الثالث

مراحل نشأة اللغة عند الإنسان

الفصل الثالث

مراحل نشأة اللغة عند الإنسان

ذكرنا آنفًا بأن الإنسان هو المخلوق الوحيد على سطح الأرض الذي ميزه الله سبحانه وتعالى عن سائر المخلوقات ومتعة بنعمة امتلاكه للعقل، فالإنسان هو المخلوق الوحيد الذي خلق مزودًا بمراكز اللغة وخصائصها الإنسانية التي تتموضع في جنبات مخه/ عقله ، وما يشتمل عليه من تلافيف متنوعة، تمكنه من امتلاك المقدرة اللغوية انتاجًا وفهمًا وابتكارًا وتوليدًا، فالإنسان إذن، هو المخلوق الوحيد الذي يمتلك الجهاز الفطري (الوراثي) الذي يمكنه من المقدرة اللغوية، وعلى الرغم من أن بعض العلماء يرون بأن مراكز المخ وتلافيفه المسئولة عن إنتاج اللغة والفكر والتوليد، وقد ارتفعت في بعض الشعوب، حتى وصلت إلى هذه المكانة العالية من التقدم الفكري والحضاري لما تمتعت به من آليات الدقة والنضج، إلا أن أممًا وشعوبًا بدائية، ما تزال حتى عصرنا الحديث، ما تزال جامدة، لم تتقدم كثيرًا عن تلك الحالة الساذجة (المفترضة) التي خلقت عليها! وأنها لم توظف تلك اللغة أو الموهبة اللغوية في ارتقائها ونموذها الحضاري وأن مراكز اللغة الوراثية ، شأنها في ذلك شأن أعضاء الحس والحركة عند الإنسان، فهي مخلوقة تملك القدرة على أداء وظائفها ، وتظل قابلة للارتقاء في آليات توظيفها، والقدرة على استعمالها في أعمال إنسانية متنوعة، إذا ما أتيحت لها وسائل مواتية لفعل ذلك. فإذا لم تتح لها تلك الوسائل، فإنها تضعف وتقصر في النهوض بوظائفها، ويمكن أن تجمد عند حد أولى، يمثل الحالة الأولية التي خلقت عليها.

أما القائلون بنظرية النشوء والتطور، إلى الحد الذي فرعوا الإنسان فيه عن غيره من الفصائل الحيوانية ، هؤلاء العلماء يرون أن مراكز اللغة وتلافيفها، ترجع إلى الظروف التي أحاطت بالإنسان منذ بدأ نشأته، وإلى الأمور التي ألجأته إليها مقتضيات حياته ، وما يتصل بها من دفاعه عن نفسه! ويُعدُّ دارون وهو رائد هذه النظرية ، حيث يرى هؤلاء بأن الإنسان كان في أول الأمر من متسلقي الأشجار، ثم اضطرته ظروف قاهرة إلى العيش على سطح الأرض، وأنه دافع عن نفسه أولاً من إغارات الحيوانات القوية وسطوتها، ذات الوسائل الحيوانية، كاستخدامه لأنيابه وبقية أعضاء جسمه، ولامتلاك الإنسان عقلاً أو مخًا، فقد هداه تفكيره إلى استخدام وسائل أخرى للدفاع عن نفسه بدلاً من استلامهم والاقتراب وما يعقبه من مصير غير مأمون، حيث ابتكر آلية القذف بالحجارة أو الخشب أو المعادن، أو أن يمسك بعصا أو نحوها من وسائل الدفاع والصد([1]).

ويذكر أصحاب هذه النظرية ، بأن هذا الأسلوب الدفاعي قد اضطر الإنسان إلى أمرين هامين وهما: ١- الوقوف على رجليه عند الدفاع عن نفسه، وما لذلك من أثر كبير في نمو بقية الأعضاء. ٢- بهذا الأسلوب الدفاعي. استغنى الإنسان عن استخدام فكه وأسنانه في الدفاع عن نفسه، مما أدى إلى اتساع مجال النمو للجمجمة، فزاد حجمها عما كانت عليه، مما أدى إلى اتساع مجال نمو المخ، فزاد حجمه، ونشأت مراكز جديدة لم تكن موجودة ومن أهمها : مراكز اللغة.

إن التجارب المعملية التي أجراها العلماء المحدثون، قد ضحدت هذه النظرية وتوصلت إلى فسادها وعدم صلاحيتها لتفسير الملكة اللغوية، عند

(١)انظر: نشأة اللغة عند الإنسان ٤٥-٤٧

الإنسان لأن تعطيل الفك والأسنان وما يستتبعه من اتساع حجم الجمجمة، ومن ثم يتسع المخ بعد ذلك أمر، معكوس لأن اتساع المخ هو الذي يستوجب اتساع حجم الجمجمة وليس العكس([1]) !

لقد اختلفت العلماء حول كيفية نشأة اللغة الإنسانية وخصائص تلك النشأة، ثمة فريق يرى بأن خصائص اللغة عند الإنسان يمكن تفسيرها بمراحل نشأة اللغة عند الطفل، وهؤلاء يرون أن اللغة الإنسانية مرت بذات المراحل عند لغة الطفل، ١- فمثة مرحلة الصراخ بأصوات غير مكيفة، لا تمثل دلالات محددة، فهي لا تشتمل على خصائص اللغة عند الإنسان (المتمثلة في المقاطع والصوامت والحركات) ([2]) مرحلة المد، وقد ظهرت في أثناتها أصوات اللين([3]) أما المرحلة الثالثة، فهي مرحلة المقاطع، وظهرت في أثنائها الأصوات الصامتة([4]).

ويرى فريق آخر من العلماء بأن اللغة الإنسانية تشتمل على المفردات اللغوية ، ودلالاتها على المعاني تارة، والمعاني الجزئية تارة أخرى([5]).

ويرى ماكس موللر أحد القائلين بهذه النظرية أن اللغة الإنسانية قد بدأت بألفاظ دالة على معان كلية، ثم انشعبت عن هذه الألفاظ الكلمات الدالة على معان جزئية([6]) ، في حين يرى فريق آخر بأن اللغة الإنسانية بدأت بألفاظ دالة

---

(١) انظر تفصيلات ذلك في نشأة اللغة عند الإنسان والطفل ٤٧-٥٠ وكذا لغة الطفل في ضوء مناهج البحث اللغوي الحديث ٤٣ وما بعدها.
(٢) انظر: نشأة اللغة عند الإنسان ٤٣
(٣) انظر: نشأة اللغة عند الإنسان ٥١-٥٢
(٤) انظر: نشأة اللغة عند الإنسان ٥٢
(٥) انظر: نشأة اللغة عند الإنسان ٥٢
(٦) انظر: نشأة اللغة عند الإنسان ٥٤

على معانٍ جزئية أما العالم ريبو Ribot فإنه يرى أن الصفة هي أول ما ظهر في اللغة الإنسانية ، ثم تبعتها أسماء المعاني وأسماء الذوات ، ثم ظهرت الأمثال، وبظهور الأفعال دخلت اللغة الإنسانية في أهم مرحلة من مراحل رقيها، ثم اختتمت بظهور الحروف(١).

(١)انظر: نشأة اللغة عند الإنسان ٥٥

4

الفصل الرابع

نظرية شليجل ومراحل نشأة اللغة عند الإنسان

الفصل الرابع

نظرية شليجل ومراحل نشأة اللغة عند الإنسان

وتُعدُّ نظرية العالم شليجل Schiegel ، هي من أشهر النظريات التي اعتمدعليها كثير من العلماء، تلك النظرية التى ورد ذكرها في الحديث عن تقسيمات الفصائل اللغوية التي قسمت اللغات الإنسانية إلى ثلاثة أنواع وهي(١):

اللغات المتصرفة أو التحليلية : وتمتاز هذه المجموعة بخصائصها الصرفية، حيث تتغير معاني الكلمات فيها بتغير مبانيها وصيغها الصرفية، ويتميز مستواها النحوي (التركيبي) بأن أجزاء الجملة فيها يتصل بعضها ببعض برواط مستقلة، تدل على مختلف العلاقات ففي اللغة العربية مثلاً على المستوى الصرفي فإن البناء الصرفي : كتابة، للدلالة على المصدر في حين البناء الصرفي : كتب للدلالة على الزمن الماضي للفعل، والبناء الصرفي : اكتب للدلالة على الأمر، وكذا البناء الصرفي كاتب للدلالة على صيغة الفاعل، والبناء الصرفي : مكتوب للدلالة على صيغة المفعول.. وهكذا أما في خصائصها التركيبية (النحوية) فكما أسلفنا فإن عناصرها تتصل بعضها ببعض عن طريق الروابط المستقلة، التي تشير إلى مختلف العلاقات.

وذلك مثل قولنا: جاء محمد وعلي من المنزل إلى الجامعة – فالتنوين بالضم للدلالة على الفاعل الذي أحدث الحدث، والواو للربط العاطفي ، و: من ، وإلى

(١) انظر: نشأة اللغة عند الإنسان ٥٥ وكذا : علم اللغة ١١٧ وما بعدها.

الدلالة على البداية، والنهاية.. ونحو ذلك من مبانٍ متنوعة ذات دلالات على معانٍ متنوعة – أيضًا- وأن ذلك يُعدُّ من خصائص اللغات السامية (كالعبرية والآرامية، والكنعانية وغيرها وكذلك الحال في خصائص اللغات الهندوأوربية ، وأما كون هذه المجموعة أو الفصيلة متصرفة، فلأنها تتغير مبانيها بتغير معانيها، وأما كونها: تحليلية، فلأنها تعتمد في تحليل أجزاء جملها، وتعتمد على وسائل للربط فيما بينها بروابط تدل على العلاقات فيما بينها(١) .

اللغات اللصقية أو الوصلية أو المجمعة : وهي تختص – أيضًا- بخصائص صرفية وتركيبية ، فالنظام الصرفي لهذه المجموعة أو بالأخرى الفصيلة، يتميز باشتماله على : السوابق ، قبل البنية الصرفية، أو اللواحق، في مؤخرة البنية الصرفية، وكذا الحواشي ، التي توجد في وسط الأبنية الصرفية. وهذه الحروف بأنواعها الثلاثة السابقة، لم يكن لها دلالة مستقلة، ولكن معظمها كان في الأصل عبارة عن كلمات ذات دلالات، فقدت معانيها ، وصارت من بعد لا تستخدم إلا كمساعدات للدلالة على تغير معنى الأصل، الذي تلتصق به، أو للإشارات إلى علاقة بما عداه من أجزاء الجملة. وتُعدُّ اللغات اليابانية والتركية، ولغات بعض الأمم البدائية، كلغة: إلا يروكوين iroquois (عشائر من الهنود الحمر، السكان الأصليون لأمريكا الشمالية) والبنتوين Bantous (وهم سكان القسم الجنوبي بإفريقيا الاستوائية (ما عدا قبيلتي الهواتانتوت Hotentots ، وقبائل : البوشيمان Bochimans حيث ترجع لغاتهم إلى فصيلة واحدة على الرغم من اختلاف أصولهم الشعبية(٢).

---

(١)انظر: نشأة اللغة عند الإنسان ٥٧-٥٨ وكذا : علم اللغة ١١٦-١١٧

(٢) انظر: نشأة اللغة عند الإنسان ٥٨-٦٠ وكذا : علم اللغة ١١٥-١١٦

ويطلق على هذا المجموعة أو الفصيلة- مصطلح اللصقية أو الوصلية، حيث يتم لصق حروف زائدة على الأبنية الصرفية، لبيان معانٍ جديدة ، أو للإشارة إلى علاقات بين أجزاء الجمل كحروف الجر والعطف وأدوات الشرط والقسم ونحوها.

اللغات غير المتصرفة: أو العازلة، ومن خصائصها الصرفية أن هذه الأبنية لا تقبل التصرف ، سواء عن طريق تغير البنية أم عن طريق لصق حروف بالأصل، فالأبنية فيها تلازم شكلاً بنائيًا واحدًا ودلالة للمعنى واحدة- أما عن الخصائص النحوية أو التركيبية فإنها تتميز بعدم وجود روابط بين أجزاء الجملة، وإنما توضع أجزاء الجملة بعضها بجانب بعض، وتحصل فوائدها ووظائفها وعلاقاتها من خلال الترتيب الذي ترد فيه أو السياق ومن أشهر لغات هذه المجموعة (اللغات الصينية ، وكثير من اللغات البدائية) واكتسبت تسميتها بغير المنصرفة من خلال تلك الخصائص التي تتمثل كما أسلفنا، في أن كلماتها لا تتصرف ولا تتغير معاينها، كما تكتسب أيضًا الوصف بالعازلة ، لأنها تعزل أجزاء الجملة بعضها عن بعض ولا يقدم بما بينها من علاقات([1]).

أما علماء هذه النظرية ، فإنهم يرون بأن اللغة الإنسانية كانت في بدايتها من هذا النوع الثالث (اللغات غير المنصرفة) وأنها تقدمت وتطورت وارتفعت إلى النوع الثاني (اللغات اللصيقة) وأنها، أي اللغة الإنسانية لم تصل إلى اللغة من النوع الأول (اللغات المتصرفة) إلا في آخر مراحلها في الارتقاء، ومن ثم، فإناللغة الصينية- مثلاً- قد توقفت عن حدود المرحلة الأولى، ولم تتجاوزها أما اللغات اليابانية والتركية، فإنها لم تتجاوز المرحلة الثانية.

---

(١)انظر: نشأة اللغة عند الإنسان ٦٠ وكذا : علم اللغة ١١٥-١١٦

وعلى الرغم من وجاهة تلك النظريات الثلاث، وتقسيم الفصائل اللغوية الإنسانية على أساسها، إلا أن هذه الأنواعه الثلاثة، لا تمثل حدًا فاصلاً بين مجموعاتها الثلاث: التصريفية – اللصيقية غير التصريفية (أو العازلة) حيث إنها لا تمثل خصائص فاصلة أو قاطعة ، وإنما الأمر الواقع على غير ذلك، فاللغة العربية على سبيل المثال، تختص بسمات تصريفية وتحليلية ، لكنها تتضمن كذلك خصائص وسمات لصقية، سواء بالحروف التي جاءت من قبيل السوابق أو اللواحق أو الحشو كما تشتمل على خصائص العزل وسماته في تراكيبها ، فثمة تراكيب عربية سواء اسمية (أم فعلية لا ترتبط عناصرها بأي رابط ملفوظ ، وأنما تفهم العلاقة من الترتيب أو السياق، أو من خلال نظرية الأثر والمقولات الفارغة، عند تشومسكي في مراحل نظريته المتأخرة([1]) .

وكذلك الحال في جميع اللغات الهندوأوربية ، كالإنجليزية أو الفرنسية وغيرها، فأنها تعتمد خصائص اللصق تارة، والعزل تارة أخرى، وأن اجتماع هذه الأنواع الثلاثة لتلك الفصائل الثلاثة يحدث في جميع اللغات الإنسانية، فليس ثمة اختصاص لأي نوع من الأنواع الثلاثة، لمجموعة من اللغات دون سواها([2]).

(١)انظر: نشأة اللغة عند الإنسان ٦١-٦٢ وكذا : المعرفة اللغوية ٢٩٦-٢٩٧ وانظر : اللغة والمسئولية ١٨-٢٣ وانظر: نظرية النحو الكلي ٧١ وما بعدها وكذا مظاهر النظرية النحوية ١٦٨ وما بعدها .

(٢)انظر: نشأة اللغة عند الإنسان ٦٢

أوجه الاتفاق والاختلاف بين الفصائل اللغوية

لقد أولى بعض العلماء اهتمامهم لإلقاء الضوء على أوجه الاتفاق والاختلاف بين الفصائل اللغوية المعروفة، ألا وهي فصيلة اللغات الهندوأوربية وفصيلة اللغات السامية الحامية، أما فصيلتين اللغات الطورانية، فإنها لم تحظ بالتسمية على أنها فصيلة ، وإنما هي مجموعات من اللغات التي تشترك في بعض خصائصها وصفاتها اللغوية، تلك المجموعات متناثرة في القارة الآسيوية والأوربية، والذي أطلق عليها هذه التسمية هو ماكس موللر M.Müller وبونسن Bunsen فهي مجموعات لغوية، لا تمثل فصيلة بالمعنى المعروف لمصطلح الفصيلة، وإنما هي خليط من لغات ، لا يمكن أن تؤلف هذه التسمية ، وقد رأى هذا الرؤى آرنست ريفان، الذي كان معاصرًا لماكس موللر وقد استقرت جميعة علم اللغة بباريس ، في موسوعتها Langues du Monds على اعتبار الفصائل اللغوية عبارة عن فصيلتين: السامية الحامية والهندوأوربية وأما بقية اللغات، فإنها تندرج تحت مجموعات، يصل عددها إلى تسع عشرة مجموعة.

أوجه الاتفاق بين الفصيلتين : الهندوأوربية والسامية الحامية :

يرى بعض العلماء أن الفصيلتين: الهندوأوربية والسامية الحامية، تتفقان في كثير من أصول ألفاظها ، ويأتي في مقدمتهم كل من: كلابروث Kleprth وبوب Bopp وهمبولدت Humboldt وغيرهم، بعض هؤلاء العلماء يرى بأن أصول إحدى الفصيلتين قد انشعبت من الأخرى، و ظلت محتفظة بأصول ألفاظها ومفرداتها ، بيد أنها تغير في قواعدها وتراكيبها، وتحولت عن أصلها وأخذت تبتعد حتى صار الخلاف بينها وبين أصلها مكونة بذلك فصيلة جديدة، في حين يرى بعض العلماء أن الفصيلتين مكونتان من لغة واحدة قد اندثرت ، ولم يتم

العثور عليها ، ولكنها كانت لغة متصرفة، تمتلك نظامًا قاعديًا كاملاً، وصنعت كل فصيلة من الفصيلتين نظامًا قاعديًا مختلفًا عن الأخرى، وقد حافظتا على النظام الصرفي لهذه اللغة الأصل المندثرة. ويرى علماء آخرون بأن الأمم السامية والآرية كانوا يتكلمون لغة واحدة مشتركة وبعد تفرقهما بين قارات العالم القديم اختصت كل أمة بلغات لها قواعدها ونظامها المناسب بيئتها وحياتها، ويرى أعلام هذه النظرية اتفاق الأصول في أبنية الفصيلتين بالأصل الثنائي ، ثم تحول في الفصيلة السامية إلى الأصل الثلاثي، ولكن آراء العلماء القائلين بهذا الاتفاق، لا تعتمد على أدلة علمية دقيقة، تمثل حقائق تاريخية من نقوش أو تراث لغوي حقيقي موجود، وإنما اعتمد هؤلاء العلماء على مجرد الاجتهاد من خلال الحدس والتخمين والرؤية الذاتية([1]).

(١)انظر: تفصيلات حول آراء العلماء المؤيدين لتوحد الفصيلتين في نشأتهما

Renan Al,etude Comparative des langues lando Europeennes 115-222

Meillet: İntroduction language Semitiques, 455.

أوجه الاختلاف:

ويرى علماء آخرون، بأن كلا من الفصيلة الهندوأوربية والسامية الحامية تختلفان في خصائصهما اللغوية، على مستوى (الأصوات والأبنية والتراكيب والدلالة) أي إنهما يختلفان في النظام اللغوي بوجه عام في كثير من خصائصهما، ويأتي في مقدمتها العالم اللغوي الفرنسي أنطــوان ماييه A,Meillet في كتابه مقدمة في اللغات الهندوأوربية İntroduction á L,étud Conpalatye des Langue İndo Eurobeennes وكذا العالم الفرنسي أرنست رينانA, Renan في كتابه: التاريخ العام للغات السامية Histoire general des langues Semitiques، ويمكن أن نقدم أوجه الاختلاف، على النحو الآتي.

المستوى الصوتي: حيث يتألف النظام الصوتي في اللغات الهندوأوربية من قسمين: الأول وهو الصواوت Consonant والثاني: الحركات Nowels وقد تميزت الحركات في تلك الفصيلة بدورها الأساسي ضمن منظومة الأصوات بها، فهي تمثل قسمًا يتمتع بالاستقلال التام، الذي لا يمكن الاستغناء عنه، سواء في النظام الكتابي أم في المنظومة النطقية، فكلمة مثل Paper بمعنى: ورقة ، تشتمل على ثلاث صوامت وهي : P,P,r وحركتين هما: a,e ولا يمكن أن تستقيم الكلمة بمعناها إلا باشتمالها على النوعين: الصوامت والحركات كتابة ونطقًا في حين نجد اللغات السامية ومنها العربية، نجدها لا تولى الحركات اهتمامًا، وجعلوها في نظام الكتابة تابعة للصوامت، ويمكن التخفف من أعباء كتابتها في كثير من الأحيان، ولعل السبب في ذلك يرجع إلى أصل النظام الكتابي للغة العربية ، واللغات السامية، وهو الأصل الفينقي في الكتابة، حيث لم يهتم النظام الضيفي بالحركات ولم يهتم علماء العربية بالحركات ودورها في اختلاف المعاني

إلا بعد نزول القرآن الكريم ، وبعد أن بدأ اللحن والانحراف يصيب ألسنة المسلمين في قراءاتهم للقرآن الكريم، وقام أبو الأسود الدؤلي (ت٦٩هـ) بوضع نقاط الإعراب أو نقاط العربية، أو ما يطلق عليه نقط المصحف الشريف، بالنقاط الحمراء للدلالة على الفتحة والضمة والكسرة، وجاء من بعده الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت١٧٥) فوضع علامات الإعراب، حيث أخذها من حروف المد واللين : الألف والواو والياء وهي: الفتحة والضمة والكسرة، ووضع رمزًا للسكون وللشدة والمد، كما ابتكر رمزًا للهمزة، ألا وهو رأس العين(١).

كما اعتمدت اللغات الهندوأوربية على الفونيمات التطريزية اعتمادًا كبيرًا في تغير دلالات الكلمات، فيلعب النبر Stres والتنغيم Intonation وكذا التنظيم المقطعي دورًا رئيسيًا في تغير دلالات الكلمات، في حين تلعب تلك الفونيمات دورًا أقل تأثيرا في تغير دلالات الكلمات في اللغات السامية(٢).

النظام الصرفي:

يعتمد النظام الصرفي في اللغات السامية على أصول ثلاثة، وثمة بعض الأصول الثنائية النادرة أو القليلة التي لا تمثل شيوعًا لبعض الأدوات والضمائر بأنواعها الشخصية والإشارية والموصولية وأسماء الذوات مثل: يد، فم، دم وكذلك بعض الحروف مثل: مِنْ – عَنْ- في ... إلخ ، ويتم الاشتقاق بزيادة السوابق أو اللواحق أو الحشو للدلالة على معانٍ وصيغ صرفية متنوعة، أما في اللغات الهندوأوربية، فإن أصول الكلمات فيها متعددة، فثمة أصول ثنائية وأخرى ثلاثية ورباعية، ولا تعتمد على الحروف الصامتة فحسب، وإنما تشاركها

(١)انظر: طبقات النحويين واللغويين، للزبيدي ١١-١٢ وكذا: انظر : دراسات في التفكير اللغوي عند العرب ٩ وما بعدها.

(٢) انظر: الدراسات الصوتية عند العلماء العرب والدرس الصوتي الحديث ١٦٧-٢٠٥

الحركات، كما أسلفنا، ويشير الأصل الصرفي في اللغات الهندوأوربية إلى المعنى العام، وأما بقية المعاني والدلالات فتكون من خلال حروف تلحق بالأصل فتدل الكلمة بتلك الحروف على كونها إما اسمًا أو فعلاً أو حرفًا أو مشتقًا كاسم الفاعل واسم المعقول ونحوها من الصيغ. ويطلق على هذه الحروف الزائدة اسم السوابق أو اللواحق، وثمة حروف تأتي بعد اللاحقة تقوم بتعيين وظيفة في الجملة: كوظيفة الفاعلية أو المفعولية أو الإضافة ... إلخ أو لتعيين الزمن : الماضي أو المضارع، أو لبيان نوع الإسناد إلى المتكلم أو المخاطب أو الغائب أو للدلالة على : المذكر والمؤنث، أو الدلالة على المفرد والجمع كما يشيع النحت في النظام الصرفي في اللغات الهندوأوربية ، فيما يندر وجوده في اللغات السامية الحامية، سوى أنواع يسيرة ، كما هو الحال في اللغة العربية(١) كما أن الزمن في اللغات السامية يعتمد على زمنين اثنين، وهما الزمن الماضي، والزمن المضارع، الذي يفيد المستقبل بزيادة السابقة: السين وسوف والأمر، وهو مأخوذ من المضارع، أما اللغات الهندوأوربية فصيغ الزمن فيها كثيرة، فثمة صيغة للماضي القريب والبعيد الكامل، والماضي المتصل بالحاضر، وكذا الحال في الزمن المضارع والمستقبل ... إلخ كما تختلف وسائل التأنيث – أيضًا- في اللغات السامية والحامية تلك اللغات تعتمد في التأثيث بزيادة تاء إلى المذكر، غير التأنيث بالألف المقصورة أو بالألف الممدودة في اللغة العربية، أما اللغات الهندوأوربية، فللتأنيث فيها طرق أخرى، منها مثلاً تضعيف الحرف الأخير للمذكر، أو باستبدال حرف آخر، أو باستبدال عدد من الأحرف الأخيرة في المذكر، لتحويلها إلى المؤنث، أو بمد الحروف الأخيرة في المذكر.

---

(١)انظر: فصول في فقه العربية ٣٠٥ وما بعدها، وكذا : التراث اللغوي العربي ٥٣ وما بعدها.

النظام النحوي والأسلوبي:

يُعدُّ النظام النحوي من المسئوليات اللغوية التي لا تتغير كثيرًا في لغات الفصيلة الواحدة، فهو إلى حد كبير نظام ثابت، يمثل هوية لغات الفصيلة الواحدة.

ويلاحظ أن الأساليب الأدبية في اللغات السامية، تميل إلى استخدام الألفاظ والعبارات في غير ما وضعت له، وذلك بانتقال معانيها انتقالاً مجازيًا، عن طريق التشبيهات والاستعارات والكنايات والمجازات المرسلة، وعلى العكس من ذلك، فإن اللغات الهندوأوربية تحافظ على استخدام دلالات الكلمات وفقا لأصل معناها غالبًا، وتأتي الأساليب بأنواعها في صورة أسلوبية خاصة([1]).

(١)انظر: نشأة اللغة عند الإنسان ١٠٢ وكذا: انظر : علم اللغة ٢١٦